(فى يوم قائظ يسيرون)

ومضيْتُ أنَا وأَبُو إسْحاقَ النظَّامُ وعَمْرُو بنُ نِهْيَوِىٍّ ، نريدُ الحديثَ فِى الجَبَّانِ ، ولِنتناظرَ فى شىءٍ منَ الكلامِ . فمررنَا بمجلسِ وَلِيدِ القُرَشِىّ ، وكانَ علَى طريقنَا . فلمَّا رآنَا تمشَّى معنَا .

فلمَّا جاوزنَا الخَنْدَقَ جلسنَا فى فِناءِ حائطهِ . وله ظِلّ شديدُ السَّوادِ ، باردٌ ناعمٌ . وذلكَ لِسُخْنِ الساترِ ، واكْتِنازِ الأجزاءِ ، ولِبُعْدِ مَسقَطِ الشَّمسِ منْ أصلِ حائطهِ . فطالَ بنَا الحديثُ ، فجرينَا فى ضُرُوبٍ منَ الكلامِ . فما شَعَرْنَا إلاَّ والنَّهارُ قد انْتَصَفَ ، ونحنُ فى يومٍ قَائِظٍ .

فلمَّا صِرْنا فى الرجوعِ ، ووجدتُ مَسَّ الشَّمسِ وَوَقْعهَا علَى الرأسِ ، أَيقنتُ بالبِرْسامِ[1] . فقلتُ لأَبى إسحاقَ ، والوليدُ إلَى جَنْبى يسمعُ كلامِى : البَاطِنَةُ مِنّا بعيدةٌ ، وهذَا يومٌ مُنْكرٌ ، ونحنُ فى ساعةٍ تُذِيب كلَّ شىءٍ . والرأىُ أن نَميلَ إلى منزِلِ الوليدِ ، فَنَقِيلَ[2] فيهِ ، ونأكلَ ما حَضَرَ ، فإنَّه يومُ تخفِيفٍ . فإذَا أَبْرَدْنا تفرقنَا ، وإلاَّ فهوَ الموتُ ليسَ دُونَهُ شىءٌ .

قالَ الوليدُ رافعًا صوتَه : أمَّا علَى هذا الوجهِ فلاَ يكونُ والله أبدًا . فَضَعْه فى سُوَيْداءِ قلبكَ! فقلتُ لهُ : (ما) هذَا الوجهُ الذى أنكرتَه علينَا - رحِمكَ اللَّه ؟ هلْ ها هنَا إلاَّ الحاجةُ والضرورةُ؟

قالَ : إنَّكَ أخرجتَه مُخْرَجَ الهُزْءِ . وقلتُ : وكيفَ أخْرِجهُ مُخْرَجَ الهُزْءِ وحياتِى فى يدِكَ ، معَ معرفَتِى بكَ ؟ فغضِبَ ، ونَتَرَ يدَه منْ أيدينَا ، وفارقَنَا . ولاَ واللهِ ما اعتذرَ إلينَا مما رَكِبنَا بهِ إلَى الساعةِ . ولم أَرَ مَنْ يجعلُ الأَسَى حُجَّةً فِى المَنْعِ إلاَّ هُو ، وإلاَّ ما كانَ منْ أبِى مازِنٍ إلَى جَبَلِ الغَمْرِ .

(أين أنا ؟!)

وكانَ جَبَلٌ خرجَ ليلًا منْ مَوْضِعٍ كانَ فيه ، فخافَ الطائِفَ ، ولم يأْمَن المُسْتَقْفِىَ[3] ، فقال : لو دَقَقْتُ البابَ على أبى مازِنٍ ، فبِتُّ عندَه فى أَدْنَى بيتٍ ، أو فى دِهْلِيزِهِ ، ولم أُلزِمْه منْ مُؤْنتِى شيئًا . حتَّى إذا انْصَدَعَ عمودُ الصُّبحِ ، خرجتُ فى أوائِلِ المُدْلِجِينَ[4] . فدقَّ عليه البابَ دَقًّ واثِقٍ ، ودقَّ مدِلٍّ ، ودقَّ مَنْ يخافُ أن يُدْرِكَه الطائِفُ ، أو يَقفُوَهُ المُستقفِى ، وفى قلبه عِزُّ الكِفايةِ ، والثِّقَةُ بإسقاطِ المُؤْنةِ .

فلَم يَشُكَّ أبو مازِنٍ أنهُ دَقُّ صاحبِ هدِيَّةٍ . فنزلَ سريعًا . فلمَّا فتحَ البابَ وبَصُرَ بِجبَلٍ ، بَصُرَ بملكِ الموتِ ! فلمَّا رآه جبلٌ واجِمًا ، لا يُجِيرُ كلمةً ، قالَ لهُ : إنى خِفْتُ مَعَرَّةَ الطائِفِ ، وعَجَلَةَ المُستقفِى ، فمِلتُ إليكَ لأَبِيتَ عندكَ . فتساكَرَ[5] أبو مازِنٍ ، وأراهُ أنَّ وُجُومَه إنَّما كانَ بِسببِ

---

(١) البِرْسام : التهاب فى الغشاء المحيط بالرئة .
(٢) فَنَقِيل : أى ننام فى نصف النهار لنستريح من شدة الحر .
(٣) المُسْتَقْفِى : استقفاه ، أى : قفا أثره ليسليه .
(٤) المُدْلِجين : الدلجة : السير من أول الليل ، وسير الليل كله .
(٥) فتساكر : أظهر أنه سكران وليس كذلك .

السُّكرِ . فخلَّعَ جوارِحَه ، وخَبَلَ لِسانَه ، وقالَ : سكرانُ واللَّه ، أنَا والله سكرانُ !

قالَ له جبلٌ : كُنْ كيفَ شِئتَ . نحنُ فى أيَّام الفَصْلِ ، لا شِتاءَ ولا صيفَ. ولستُ أَحتاجُ إلى سَطْحٍ ، فأغُمَّ عيالَكَ بالحَرِّ ، ولستُ أحتاج إلى لِحافٍ ، فأكَلِّفَك أنْ تُؤْثِرَنِي بالدِّثارِ[1] . وأنَا كما ترى ثَمِلٌ منَ الشرابِ ، شَبْعانُ من الطَّعامِ . ومِنْ منزِلِ فُلانٍ خرجتُ ، وهو أَخْصبُ الناسِ دَخلًا . وإنَّما أُريدُ أنْ تَدَعَنى أُغْفِى فى دِهْلِيزِكَ إغْفَاءةً واحدةً ، ثُم أقومُ فى أوائِلِ المبكِّرين .

قالَ أبو مازنٍ ، وأَرْخَى عينيه وفكّيه ولِسانَه ، ثم قالَ : سَكْرانُ والله ! أنَا سكران ! لا والله ما أعقِلُ أينَ أنَا ! والله إنْ أَفْهَمُ ما تقول ! ثُم أغلقَ البابَ فى وجهِهِ ، ودخلَ لا يَشُكُّ أن عُذْرَه قد وَضَحَ ، وأنَّه قدْ أَلْطَفَ النظرَ ، حتَّى وَقَع علَى هذه الحِيلةِ !

وإنْ وجدتُم فى هذَا الكتابِ لَحْنًا ، أو كلامًا غَير مُعْرَبٍ ، ولفظًا مَعْدولًا عن جِهتِهِ ، فاعلَموا أنَّا إنَّما تركنَا ذلكَ ، لأنَّ الإعرابَ يُبَغِّضُ هذَا البابَ ، ويُخرِجهُ منْ حَدِّه . إلاَّ أنْ أَحكِيَ كلامًا مِن كلامِ مُتَعاقِلى البخلاء ، وأشِحّاء العلماءِ ، كَسَهْلِ بنِ هارونَ وأشباهِه .

(قِصّةُ أحمدَ بنِ خَلَف)

ومنْ طِيابِ البخلاء أحمدُ بنُ خَلَفٍ اليَزِيدىُّ .

تركَ أبوهُ فى منزلِهِ يومَ ماتَ أَلْفَىْ ألفِ درهم ، وستَّمائةِ ألفِ دِرهم ، وأربعينَ ومِائةَ ألفِ دينارٍ . فاقتسمَها هُو وأخوهُ حاتِمٌ قبلَ دَفْنِهِ . وأخذَ أحمدُ وحدَه ألفَ ألفٍ وثَلثَمائةِ ألفِ دِرهمٍ ، وسبعينَ ألْفَ دينارٍ ، ذهبًا عَيْنًا ، مَثَاقِيلَ وازِنةً جِيادًا ، سِوَى العُرُوضِ[2] .

فقلتُ لهُ وقدْ ورِثَ هذا المال كلَّه : ما أبطأ بكَ الليلةَ ؟ قال : لاَ واللَّهِ ، إلاَّ أنِّى تعشيتُ البارِحةَ فى البيتِ ! فقلتُ لأصحابنَا : لولاَ أنَّه بعيدُ العَهْدِ بالأكْلِ فى بيتِهِ ، وأنَّ ذلكَ غريبٌ منهُ ، لما احتاجَ إلَى هذَا الاستِثناءِ ، وإلَى هذهِ الشَّرِيطةِ[3] . وأينَ يتعشَّى الناسُ إلاّ فى منازِلِهم ؟ وإنَّما يَقولُ الرجلُ عندَ مِثْلِ هذهِ المسألةِ : لا والله ، إلاَّ أنَّ فلانًا حَبَسَنى ، ولا والله ، إلاَّ أنَّ فلانًا عَزَمَ علىَّ . فأمَّا ما يُستَثْنَى ويُشترطُ ، فهذَا ما لاَ يكونُ إلاَّ علَى ما ذكرناه قبْلُ .

وقالَ لِى مُبْتَدِئًا مرَّة عنْ غيرِ مَشُورةٍ ، وعنْ غيرِ سبَبٍ جَرَى : انُظر أَنْ تتَّخِذَ لعيالكَ فى الشِّتاءِ منْ هذه المُثَلَّثة[4] ؛ فإنَّها عظيمةُ البركةِ ، كثيرةُ النَّزْلِ ، وهىَ تَنُوبُ عَنِ الغَدَاءِ . ولهَا نَفْخَةٌ تُغنى عن العَشاءِ . وكلُّ شىءٍ منَ الأحساءِ ، فهوُ يغنى عَنْ طَلَبِ النَّبِيذِ وشُرْبِ الماءِ . ومَنْ تَحَسَّى الحارَّ

(١) بالدِّثار : بالغطاء وفى التنزيل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر : ١-٢] .
(٢) العُرُوض : كل شىء سوى الدراهم والدنانير .
(٣) الشريطة : الشرط والعلامة .
(٤) المُثَلَّثة : شراب طبخ حتى ذهب ثلثاه .

عَرِقَ. والعَرَق يُبَيِّض الجِلْدَ، ويَخْرُجُ منَ الجَوْفِ. وهىَ تملأُ النَّفْسَ، وتمنعُ منَ التَّشَهِّى. وهىَ أيضًا تُدْفِئُ، فتقومُ لكَ فى أَجْوافِهم مَقَامَ فَحْمِ الكَانُون منْ خَارجٍ. وحَشْوٌ طارٍ يغنى عنِ الوَقُودِ، وعن لُبْسِ الحَشْوِ[1].

والوَقُودَ يُسَوِّدُ كلَّ شىءٍ ويُيَبِّسهُ. وهو سريعٌ فى الهَضْمِ، وصاحبُه مُعَرَّضٌ للحَرِيقِ، ويذهبُ فى ثمنِه المالُ العظيمُ. وشَرُّ شىءٍ فيه أنّ من تعوَّده لم يُدْفِئْه شىءٌ سِواهُ.

فعليكَ يا أبَا عثمانَ بالمثلَّثةِ! واعلمْ أنَّها لا تكونُ إلاَّ فى منازلِ المَشْيَخَةِ وأَصحابِ التَّجرِبةِ. فخذْهَا منْ حكِيمٍ مُجرِّبٍ، ومِنْ ناصحٍ مُشْفِقٍ.

وكانَ لا يُفارِقُ منازِلَ إخوانِهِ. وإخوانهُ مخاصِيبُ[2] مناوِيبُ[3]، أصحابُ نَفْحٍ وَتَرَفٍ. وكانُوا يُتْحِفُونَه ويُدَلِّلونَه ويُفَكِّهونَه ويُحَكِّمونَه. ولم يَشُكُّوا أنَّه سيدعُوهم مرَّةً، وأن يجعلُوا بيتَه نُزْهةً ونَشوةً. فلمَّا طالَ تَغَافُلُه، وطالتْ مُدَافعتُه، وعَرَّضوا له بذلكَ فتغافَل، صَرَّحوا لهُ. فلمّا امتنعَ قالُوا: اجعلْها دعوةً ليسَ لها أختٌ.

فلمّا بَلَغَ مِنه ومنهُم المَجْهُودُ، اتَّخذَ لهم طُعَيِّما خَفِيفًا، شَهِيًّا مَليحًا، لا ثَمَنَ له ولا مُؤْنةَ فيه. فلمَّا أكلُوا وغسلُوا أيْدِيَهم، أقبلَ عليهم فقالَ: أسألُكُم بالله الذى لا شىءَ أعظمُ منه، أنا الساعةَ أيْسَرُ وأغنَى، أو قبلَ أنْ تأكلُوا طعامى؟ قالُوا: ما نَشُكُّ أنَّك حينَ كنتَ والطعامُ فى مِلْكِك، أغنى وأيْسَرُ. قالَ: فأنَا الساعةَ أَقْرَبُ إلى الفقرِ، أم تلكَ الساعةَ؟ قالوا: بل أنتَ الساعةَ أقربُ إلى الفقرِ. قالَ: فَمَنْ يلومُنِى عَلى تركِ دَعوَةِ قومٍ قَرَّبونى منَ الفقرِ، وباعَدُونى منَ الغِنى، وكلَّما دعوتُهم أَكْثَرَ كنتُ منَ الفقرِ أقربَ، ومنَ الغِنى أبعدَ؟

وفى قِياسِهِ هذَا أنَّ مِن رأيِهِ أنْ يَهْجُرَ كلَّ مَن استسقَاه شَرْبَةَ ماءٍ، أو تناولَ منْ حائِطِهِ لَبِنَة، ومِنْ خليطِ دابَّتِه عودًا.

ومَرَّ بأصحابِ الجِداءِ، وذلكَ فى زمانِ التَّوليدِ[4]. فأطعمهُ الزَّمانُ فى الرُّخصِ، وتحركت شهوتُه علَى قَدْرِ إمكانِه عِنده. فبعثَ غلامًا له يقالُ له ثَقْف؛ وهُو معروفٌ، ليشترىَ له جدْيًا. فوقفَ غَيْرَ بَعِيدٍ. فلم يلبثْ أنْ رجعَ الغلامُ يُحْضِرُ، وهو يُشير بيدِهِ، ويومِئُ برأسِه: أنِ اذهبْ ولا تقِفْ. فلم يَبْرَحْ. فلمّا دنَا منه قال: وَيْلَكَ، تهزأ بِى كأنِّى مطلوبٌ! قالَ: هذا أَطْرَفهُ! الجَدْىُ بعشَرةٍ! أنتَ مِن ذِى البَابَةِ؟ مُرَّ الآن، مُرَّ مُرَّ!

فإذَا غلامُه يرى أنَّ مِن المُنْكَر أَنْ يُشْتَرَى جَدْىٌ بَعَشَرَةِ دراهِم! والجَدْىُ بعَشَرةٍ إنَّما يُنْكَرُ عندنَا

---

(١) الحَشْو: المقصود الأكسية المحشوة بالقطن ونحوه.
(٢) مخاصِيبُ: الخصيب كثير الخير.
(٣) مناوِيبُ: المقصود على كل واحد منهم طعام يوم.
(٤) التَّوليد: أى توليد الجداء، وهى المواعز جمع ماعزة.

بالبَصْرةِ ، لكثرةِ الخيْرِ ، ورُخْصِ السِّعرِ . فأمَّا فى العَساكِر ، فإن أنكر ذلك مُنْكِرٌ ، فإنَّما يُنْكِرُه مِنْ طريقِ رُخصِه ، وقِلَّة ثمنِه ، لا لِغيرِ ذلكَ .

(أىُّ الرِّجالِ المُهذَّبُ ؟)

ولا تقولُوا الآنَ : قدْ والله أساء أبُو عثمانَ إلى صَدِيقِهِ ، بلْ ما تناولَه بالسُّوء حتَّى بدأَ بنفسهِ . ومَنْ كانتْ هذه صِفَتَه ، وهذَا مَذْهبه ، فَغَيْرُ مأْمونٍ على جَلِيسهِ . وأىُّ الرجالِ المُهَذَّبُ ؟ هذا والله الشُّيُوعُ والتُّبُوع ، والبَذَاءُ وقِلَّة الوفاءِ .

اعلَموا أنِّى لم ألتمسْ بهذِه الأحاديثِ عنهُ إلاَّ موافَقَتَه ، وطلبَ رضاه ومحبَّتَه . ولقدْ خِفتُ أنْ أكونَ عندَ كثيرٍ منَ الناسِ دَسِيسًا من قِبَله ، وكَمِينًا مِن كُمِنَائِه[1] . وذلكَ أنَّ أَحبَّ الأصحابِ إليه أَبْلَغُهُمْ قولًا فى إياسِ الناسِ مِمّا قِبَلَه ، وأجْوَدُهم حَشمًا لأسبابِ الطمعِ فى مالِهِ .

علَى أنِّى إنْ أحسنتُ بِجُهْدِى ، فسيجعلُ شُكْرِى مَوْقُوفا . وإنْ جَاوَزَ كتابِى هذا حُدُودَ العِراقِ شَكَر ، وإلاَّ أَمْسَكَ . لأنَّ شُهْرَتَه بالقبيحِ عندَ نفسهِ فى هذَا الإقليم ، قد أَغْنَتْه عنِ التَّنويه والتَّنبيه على مَذْهبِهِ . وكيفَ وهُو يرى أنَّ سَهْلَ بنَ هارونَ وإسماعيلَ بنَ غَزْوانَ كانَا منَ المُسْرِفين ، وأنَّ الثَّوْرِىَّ والكِنْدِىَّ يستوجِبانِ الحَجْرَ .

وبلغنى أنَّه قالَ : لو لم تَعْرِفُوا مِنْ كرامة الملائكة على الله إلا أنَّه لم يَبْتَلِهِمْ بالنَّفقةِ ، ولا بِقَولِ العِيال : هاتِ ، لعرفتُم حالَهم ومنزلتَهم .

(مِنْ أَحَادِيثِ الأَضْحَابِ)

وحدَّثَنى صاحبٌ لي قالَ : دخلتُ علَى فلانِ بنِ فلانٍ ، وإذا المائدةُ موضوعةٌ بَعْدُ ، وإذا القومُ قد أَكَلُوا ورفعُوا أيديَهم . فمددتُ يدى لآكُل ، فقالَ : أَجْهِز علَى الجَرْحَى ، ولا تتعرَّضْ للأَصِحَّاءِ ! يقولُ : إعْرِضْ للدَّجاجةِ التى قد نِيلَ منها ، وللفَرْخِ المنزوع الفَخذِ . فأمَّا الصحيحُ فلا تتعرَّضْ له . وكذلكَ الرغيفُ الذى قدْ نِيلَ منه ، وأصابه بعضُ المَرَق[2] .

وقالَ لي هذا الرجلُ : أكلنَا عندَه يومًا ، وأبُوهُ حاضرٌ ، وَبُنَىٌّ له يجىءُ ويذهبُ . فاختلفَ مِرارًا . كلُّ ذلكَ يرانَا نأكلُ . فقالَ الصبىُّ : كَمْ تأكلونَ؟ لا أطعمَ الله بطونَكم ! فقالَ أبوهُ ، وهو جَدُّ الصبىِّ : ابنى وَرَبِّ الكَعْبةِ !

وحدَّثنى صاحبُ مَسْلَحَةِ بابِ الكَرْخِ ، قال : قالَ لى صاحبُ الحَمَّام : ألاَ أعْجبُك من صالحِ بنِ عَفَّانٍ ؟ كان يجىءُ كلَّ سَحَرٍ ، فيدخلَ الحمَّام . فإذَا غبتُ عنْ إجَّانَةِ النُّورةِ[3] مسحَ أَرْفَاغَه . ثم

---

(١) كُمَنَائِه : جمع كمين ، وهو الداخل فى الأمر لا يبطن له .
(٢) انظر العقد الفريد (٦/ ١٤١) وعيون الأخبار (٣/ ٢٧٣) .
(٣) النُّورة : أخلاط من أملاح الكالسيوم والباريوين تستعمل لإزالة الشعر . والإجانة وعائها .

يتستَّر بالمِئْزرِ . ثُم يقومُ فيغسلُه فى غِمَار الناسِ . ثم يجىءُ بَعْدُ فى مِثلِ تلكَ الساعةِ ، فَيَطْلِى ساقيهِ وبعضَ فَخِذيْه . ثم يجلسُ ويتَّزِر بالمِئْزَرِ . فإذَا وجدَ غَفْلَة غسلَه . ثم يعودُ فى مِثلِ ذلكَ الوقتِ ، فيمسحُ قِطعةً أخرى من جَسَدِه . فلا يزالُ يَطَّلِي فى كل سَحَرٍ، حتى ذهبَ مِنِّى بِطَلْيَة .

قالَ : ولقد رأيتُه وإنَّ فى زِبقِ سَراوِيله نُورَةً .

وكانَ لا يرَى الطبخَ فى القُدُورِ الشاميَّة ولا تبريدَ الماءِ فى الجِرارِ المَذَارِيَة[1] ؛ لأنَّ هذِه تَرْشِح ، وتلكَ تَنْشَفُ .

حدَّثَنى أبو الجَهْجَاهِ النُّوشَرْوانِيّ ، قالَ : حدّثنى أبو الأَحْوَصِ الشاعرِ ، قالَ : كنّا نُفْطِرُ عندَ الباسِيانى . فكانَ يرفعُ يديه قبلَنا ، ويستلْقِى على فِراشِه[2] ، ويقولُ : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[3] .

(حديثُ خالدِ بنِ يزيدَ)

وهذَا خالدُ بنُ يزيدَ مَوْلَى المَهَالِبةِ . هُو خَالَوَيْهِ المُكْدِى . وكانَ قد بَلَغ فى البخلِ والتَّكْدِيةِ ، وفى كَثْرةِ المالِ ، المَبَالِغَ التى لم يَبْلُغَها أحدٌ .

وكانَ ينزلُ فى شِقِّ بنى تَمِيم فلم يَعْرِفُوهُ . فوقفَ عليهِ ذاتَ يَوم سائِلٌ ، وهُو فى مَجْلسٍ من مجالسِهم . فأدخلَ يده فى الكِيسِ ليُخرِج فَلْسًا ، وفُلوسُ البَصْرةِ كِبارٌ . فغلِطَ بِدِرهم بَغْلِيٍّ . فلم يَفْطَنْ ، حتى وضَعَه فى يدِ السائِل . فلمَّا فَطِنَ استردَّه وأعطاهُ الفَلْسَ . فقيلَ له : هَذا لا نظنُّه يَحِلُّ . وهو بَعْدُ قبيحٌ ! قالَ : قبيحٌ عندَ مَنْ ؟ إنى لم أجمعْ هذا المالَ بعقولكُم ، فأفرِّقَه بعقُولكُم ! ليسَ هذَا منْ مساكِين الدَّراهِم . هذَا منْ مساكينِ الفُلُوسِ! واللَّه ما أعرفُه إلاَّ بالفِراسةِ .

قالُوا : وإنَّك لَتَعْرِفُ المُكْدِين ؟ قالَ : وكيفَ لا أعرفُهُم ! لم يبقَ فى الأرضِ مخطرانِيٌّ ، ولا مُسْتَعرِضُ الأَقْفِية[4] ، ولا شَحَّاذٌ ولا كَاغانِيٌّ[5]، ولا بانْوان ، ولا فَرَسِيّ ولا عَوَّاءٌ ، ولا مُشَعْبِذٌ ، ولا مَزِيدِيٌّ ، ولا إسْطِبلٌ ، إلاَّ وقد كانَ تحتَ يَدِى . ولقدْ أكلتُ الزّكورِيَّ ثلاثين سنةً . ولم يبقَ فى الأرضِ كَعْبِيٌّ ولا مُكْدٍ إلاَّ وقدْ أخذتُ العِرافةَ عليه .

وإنَّما أرادَ بهذَا أن يُؤْيسهُم مِن مالِه ، حينَ عَرَفَ حِرْصَهم وجَشَعَهم وسُوءَ جِوارهمْ .

وكانَ قاصًّا متكلِّما ، بليغًا دَاهِيًا . وكانَ أبُو سليمان الأعورُ وأبو سَعِيد المدائنِيُّ القاصَّان من غِلمانِه .

وهُو الَّذى قالَ لابنه عِندَ موتِه : إنِّى قدْ تركتُ لكَ ما تأكلُه إنْ حَفِظتَه ، وما لا تأكلُه إن ضيَّعتَه .

---

(١) المَذَارِيَة : بلد بين واسط والبصرة . (٢) انظر العقد الفريد (٦/ ١٤٠) . (٣) الإنسان : ٩ .

(٤) الأقْفِية : جمع قفا ، والمقصود أنه يتعرف حالهم وذلك بالنظر إلى أقفيتهم وهم ماشون . (٥) سيأتى تعريف لهذه الكلمات .

ولَمَا وَرَّثْتُك منَ العُرْف الصالح ، وأَشْهَدْتُك منْ صَوَابِ التدبيرِ ، وعوَّدتكُ مِن عَيْشِ المُقْتَصِدين ، خيرٌ لكَ مِنْ هذَا المالِ . وقدْ دفعتُ إليكَ آلةً لحفظِ المالِ عليكَ بكلِّ حِيلَةٍ . ثمُ إنْ لمْ يكنْ لكَ مُعِينٌ منْ نَفْسكَ ، ما انتفعتَ بشيءٍ منْ ذَلِكَ . بلْ يعودُ ذلكَ النَّهْىُ كلُّه إغراءً[1] لكَ ، وذلكَ المنعُ تَهْجِينًا لِطَاعتِكَ .

قدْ بلغتُ فِى البَرِّ مُنْقَطَعَ التُّرابِ ، وفى البحرِ أَقْصَى مَبْلَغِ السُّفنِ . فلاَ عليكَ ألاَّ ترَى ذَا القرنينِ .

وَدَعْ عنكَ مذاهبَ ابنِ شرية ، فإنَّه لا يعرِفُ إلاَّ ظاهرَ الخَبَرِ . ولو رآنى تميمٌ الدَّارِىُّ لأَخَذ عنِّى صِفَةَ الرُّوم .

ولأَنا أَهْدَى منَ القَطَا،[2] ومن دُعَيْمِيصٍ[3] ، ومن رَافِعٍ المِخَشِّ[4] .

إنِّى قدْ بِتُّ بالقَفْرِ معَ الغُولِ ، وتزوَّجتُ السِّعْلاَةَ[5] ، وجاوَبْتُ الهاتِف ، ورُغْتُ عَنِ الجِنِّ إلى الجِنِّ ، واصطدتُ الشِّقَّ ، وجاوبْتُ النَّسْناسَ ، وصَحِبَنِى الرَّئِىُّ[6] . وعرفتُ خُدَعَ الكاهِنِ ، وتدسيسَ العَرَّافِ ، وإلاَم يذهبُ الخَطَّاطُ والعَيَّافُ[7] ، وما يقول أصحابُ الأَكْتافِ . وعَرَفْتُ التَّنْجِيمَ ، والزَّجْرَ ، والطَّرْقَ ، والفِكْرَ .

إنَّ هذَا المالَ لم أجمعْهُ منَ القَصَصِ والتَّكْدِيةِ ، ومِنَ احتيالِ النَّهارِ ، ومُكابَدَةِ الليل . ولا يُجمع مِثْلُه أبدًا إلاَّ مِنْ مُعاناة رُكُوبِ البحرِ ، ومنْ عملِ السُّلْطان ، أو من كِيمِيَاء الذهبِ والفِضَّةِ .

قدْ عرفتُ الرأسَ حقَّ مَعْرِفتِهِ ، وفهمتُ كَسْرَ الإكْسِيرِ[8] على حقيقتِهِ.

ولولاَ علْمِى بِضيقِ صَدْرِكَ ؛ ولولاَ أنْ أكونَ سببًا لِتَلَفِ نفسِكَ ، لعلَّمتُكَ الساعةَ الشىءَ الذَّى بلَغَ بِقَارُون ، وبه تَبَنَّكَتْ[9] خَاتونُ[10] .

والله ما يتَّسعُ صدرُك عِندِى لِسِرٍّ صَدِيقٍ ، فكيفَ ما لا يَحْتَمِلُه عَزْمٌ ، ولا يتَّسعُ لهُ صَدْرٌ ؟ وحَرْزُ سِرِّ الحديثِ ، وحَبْسُ كُنوزِ الجواهرِ ، أَهْوَنُ منْ خَزْنِ العلمِ .

ولوْ كنتَ عِندِى مأْمُونًا علَى نفسِكَ لأجريتُ الأرواحَ فى الأجسَادِ ، وأنتَ تُبْصِرُ ما كنتَ لا تفهمُه بالوَصْفِ ، ولا تَحُقُّهُ بالذِّكْرِ . ولكنِّى سأُلْقِى عليكَ عِلمَ الإدراكِ ، وسَبْكَ الرُّخام ، وصنعةَ الفُسَيْفساءِ[11] ، وأسرارَ السُّيُوفِ القَلَعِيةِ[12] ، وعقاقيرَ السيوفِ اليَمَانِيَّةِ[13] ، وعملَ الفِرْعَوْنِىِّ ،

---

(١) الإغراءُ : التحبيب فى الشىء .
(٢) القَطَا : نوع من الحمام الواحدة قطاة .
(٣) دعيميص : اسم رجل كان داهية ، يضرب به المثل فيقال : هو دعميص هذا الأمر أى : عالم به .
(٤) هو رافع بن عمير ، وقد وصف بالمخش لجراءته ؛ لأن المخش : الماضى الجرىء .
(٥) السعلاة : نوع من الغيلان ، والجمع السعالى .
(٦) الرَّئِىُّ : جنّ يتعرض للرجل يريه كهانة وطبا .
(٧) العَيَّافُ : زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وزطواتها وممرها .
(٨) الإكْسِير : مادة مركبة كان الأقدمون يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب .
(٩) تَبَنْكَتْ : تمكنت .
(١٠) خَاتون : العظيمة من نساء الترك أو الروم .
(١١) الفسيفساء : ألوان تؤلف من الخرز توضع فى الحيطان كأنها نقش مصور .
(١٢) القلعة : موضع بالبادية تنسب إليه السيوف .
(١٣) اليمانية : مشهورة بكرامة المعدن ، وقوتها فى القطع .

وصَنْعَةَ التَّلْطيفِ على وجهِهِ ، إنْ أقامَنى الله مِنْ صَرْعَتى هذهِ .

ولستُ أَرْضَاكَ وإنْ كنتَ فوقَ البَيِينَ ، ولا أثِقُ بكَ وإنْ كنتَ لاحِقًا بالآبَاءِ ، لأنّى لم أبالِغْ فى مَحَبَّتِك .

إنّى قدْ لابَسْتُ السُّلاَطِينَ والمساكِينَ ، وخدمتُ الخُلَفَاءَ والمُكْدِينَ ، وخالطتُ النُّسَّاكَ والفُتَّاكَ ، وَعَمَرْتُ السُّجونَ ، كما عَمَرْتُ مَجَالِسَ الذِّكرِ ، وحَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَه ، وصادَفْتُ دَهْرًا كثيرَ الأعاجِيبِ .

فلولاَ أَنّى دخلتُ مِنْ كُلِّ بابٍ ، وجَرَيْتُ معَ كلِّ رِيحٍ ، وعرفتُ السَّرَّاءَ والضَّرَّاءَ ، حتَّى مَثَّلتْ لى التَّجارِبُ عواقِبَ الأُمورِ ، وقَرَّبَتْنى مِنْ غَوامِضِ التَّدْبيرِ ، لَمَا أَمْكَنَنى جَمْعُ ما أُخَلِّفُهُ لكَ ، ولا حِفْظُ ما حَبَسْتُه عليكَ . ولم أَحْمَدْ نَفْسِى علَى جَمْعِهِ ، كَما حَمِدْتُها علَى حِفْظِه ، لأنَّ بعضَ هذَا المالِ لم أنلْه بالحَزْمِ والكَيْسِ[1] .

قدْ حفظتُه عليكَ مِن فِتْنَةِ الأبناءِ ، ومنْ فِتنةِ النِّساءِ ، ومنْ فِتْنةِ الثَّناءِ ، ومنْ فِتْنةِ الرِّياءِ ، ومن أيْدِى الوُكَلاءِ ، فإنَّهُمُ الدَّاءُ العَيَاءُ[2] .

ولستُ أوصيكَ بحفظِه لِفَضْلِ حُبِّى لكَ ، ولكنْ لفضلِ بُغْضِى للقاضِى : إنَّ الله جَلَّ ذِكْرُهُ - لمْ يسلِّط القُضَاةَ علَى أموالِ الأولادِ إلاَّ عُقوبةً للأولادِ ؛ لأنَّ أباهُ إنْ كانَ غنيًّا قادرًا ، أحبَّ أنْ يُرِيَهُ غِناهُ وقُدْرتهُ ، وإن كانَ فقيرًا عاجزًا ، أحبَّ أنْ يستريحَ مِنْ شَيْنِه ، ومنْ حَمْلِ مُؤْنتِهِ . وإنْ كانَ خارجًا منَ الحالَيْن ، أحبَّ أنْ يستريحَ مِنْ مُدَاراتِهِ .

فلاَ هُمْ شكَروا مَنْ جَمَعَ لهُم ، وَكَفَاهُم وَوَقاهُم وغَرَسَهُمْ[3] ، ولا هُم صَبَرُوا علَى مَنْ أوجبَ اللهُ حَقَّهُ عليهِمْ . والحقُّ لا يُوصَفُ عاجِلُه بالحلاوةِ ، كَما لا يُوصَفُ عاجِلُ الباطِلِ بالمرارةِ . فإنْ كنتَ مِنْهمْ فالقاضِى لكَ . وإنْ لم تكنْ منهمُ فالله لكَ .

فإنْ سلكتَ سبيلِى ، صارَ مالُ غيرك وديعةً عندكَ ، وصرتَ الحافِظَ على غيرك . وإنْ خالفتَ سبيلِى ، صارَ مالُكَ وديعةً عندَ غيرك ، وصارَ غَيْرُكَ الحافِظَ عليكَ . وإنَّك يَوْمَ تطمعُ أنْ تُضِيعَ مالكَ ويَحْفَظَهُ غيرُك ، لَجَشِعُ الطَّمعِ ، مَخْذُولُ الأَملِ .

احتالَ الآباءُ فى حَبْسِ الأَموالِ علَى أولادِهم بالوَقْفِ ، فاحتَالتِ القُضَاةُ علَى أولادِهم بالاسْتِحجارِ . ما أسْرَعَهُمْ إلَى إطلاقِ الحَجْرِ[4] ، وإلَى إيناسِ الرُّشْدِ ، إذَا أرادُوا الشِّراء منهُم ! وأبطأَهُمْ عنهُم ، إذَا أرادُوا أنْ تَكونَ أموالُهم جائِزةً لصَنَائِعِهِم !

---

(١) الكَيْس : الفطنة والعقل . (٢) الداء العياء : الصعب الذى لا دواء له . فقد أعيا الطبيب .

(٣) غَرَسَهُمْ : أى كان السبب فى نعمة وجودهم فى الدنيا . والسبب الأول هو الله عز وجل .

(٤) الحَجْر فى الشرع : المنع فى التصرف لصغر أو لسفه أو لجنون وإطلاقه فكه .

يا بنَ الخَبِيثةِ ! إنَّكَ وإنْ كنتَ فوقَ أبناءِ هذَا الزمانِ ، فإنَّ الكِفايةَ قدْ مَسختْكَ ، ومعرِفَتَك بكثرةِ ما أخَلِّفُ قدْ أفسدتْكَ . وزادَ فى ذلِكَ أَنْ كنتَ بِكْرى وعِجْزَةَ أُمِّك[1] .

أنَا لو ذهبَ مَالِي لجلستُ قَاصًا ، أو طُفْتُ فى الآفاقِ - كَما كنتُ - مُكْدِيًا : اللِّحْيةُ وافرةٌ بيضاءُ ، والحَلْقُ جَهِيرٌ[2] طَلٌّ ، والسَّمْتُ حَسَنٌ ، والقَبولُ علىَّ واقعٌ ! إنْ سألتُ عَيْنِى الدمعَ أجابتْ . والقليلُ منَ رحمةِ الناسِ خيرٌ منَ المالِ الكثيرِ . وصِرتُ مُحْتَالًا بالنهارِ ، واستعملتُ صِناعةَ اللَّيلِ ؛ أو خرجتُ قاطعَ طريقٍ ؛ أو صِرْتُ للقومِ عَيْنًا ولهُم مِجْهَرًا .

سَلْ عنِّى صَعَاليكَ الجَبَلِ ، وزَواقيلَ[3] الشَّامِ ، وزُطَّ[4] الآجَامِ ، ورُءوسَ الأكْرادِ ، ومَرَدةَ الأَعْرَابِ ، وفُتَّاكَ نَهْرِ بَطٍّ ، ولُصُوصَ القُفْصِ !

وَسَلْ عَنِّى القِيقَانِيَّةَ[5] والقَطْرِيةَ[6] . وسَلْ عنِّى المُتَشَبِّهةَ ، وذبَّاحِى الجزيرَةِ : كيفَ بَطْشِى ساعةَ البَطْشِ ، وكيفَ حِيلَتِى ساعةَ الحِيلةِ ، وكيفَ أنَا عنْدَ الجَوْلَةِ ، وكيفَ ثَبَاتُ جَنَانِى عندَ رُؤْيَةِ الطَّلِيحةِ ، وكيفَ يَقظَتِى إذَا كنتُ رَبِيئَةً[7] ، وكيفَ كلامِى عندَ السُّلْطانِ إذَا أُخِذْتُ ، وكيفَ صَبْرِى إذَا جُلِدْتُ ، وكيفَ قِلَّةُ ضَجَرِى إذَا حُبِستُ ، وكيفَ رَسَفَانِى فى القَيْدِ إذا أُثْقِلتُ !

فَكَمْ منْ ديماسٍ[8] قدْ نَقَبْتُه ، وكَم منْ مُطْبِقٍ قد أفْضَيْتُه ، وكمْ منْ سِجْنٍ قدْ كابَدْتُه .

وأنتَ غُلامٌ لسانُكَ فَوْقَ عقلكَ ، وذكاؤُكَ فوقَ حَزْمكَ . لم تَعجُمْكَ الضَّرَّاءُ ، ولم تَزَلْ فى السَّرَّاءِ . والمالُ واسِعٌ ، وذَرْعُك ضَيِّق . وليسَ شىءٌ أخوفَ عليكَ عِنْدى منْ حُسْنِ الظَّنِّ بالناسِ ؛ فَإنَّهُم شِمالُكَ علَى يَمينكَ ، وسَمْعُكَ علَى بَصَركَ . وخَفْ عبادَ الله على حَسَبِ ما ترجُو الله ؛ فأوَّلُ ما وَقَع فى رُوعِى أنَّ مالِى محفوظٌ علىَّ ، وأنَّ النَّماءَ لازمٌ لِى ، وأنَّ الله سَيَحْفَظُ عَقِبِى مِنْ بَعْدِى .

إنِّى لما غَلَبَتْنِى يومًا شَهْوتِى ، وأخرجتُ يوما دِرْهما لقضاءِ وَطَرِى[9] ، ووقعتْ عينِى علَى سِكَّتِه ، وعلَى اسْمِ الله المكتوبِ عليهِ ، قلتُ فى نَفْسِى : إنِّى إذَا لمنَ الخاسِرينَ الضَّالِينَ : لئنْ أنَا أخْرجتُ مِنْ يَدِى ومنْ بَيْتِى شيئًا عليهِ (لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ) ، أخذتُ بَدَلَهُ شيئًا ليسَ عليه شىءٌ ! والله إنَّ المؤمنَ لَيَنْزِعُ خاتَمة للأمرِ يريدُه ، وعليه (حَسْبِيَ اللهُ) ، أو (توكَّلْتُ علَى الله) ، فيظنُّ أنَّهُ قدْ خَرَجَ منْ كَنَفِ اللهِ - جَلَّ ذِكْرُهُ - حتَّى يَرُدَّ الخَاتَمَ فى مَوْضِعِهِ! وإنَّما هُو خاتمٌ واحدٌ . وأنَا أريدُ أنْ أخْرِجَ فى كلِّ يومٍ دِرْهَما عليهِ الإسلامُ كما هُو ! إنَّ هذَا لَعَظِيمٌ ! .

---

(١) عِجْزَةَ أُمِّك : عجزة الرجل : آخر ولد يولد له .
(٢) جهير : ذو صوت جهير .
(٣) زواقيل : أى اللصوص .
(٤) زُطّ : جنس من السودان والهنود ، والآجام هو الشجر الملتف .
(٥) القِيقَانية : وادٍ من أودية نجد .
(٦) القَطْرِية : موضع بين واسط والبصرة .
(٧) الرَّبِيئة : الذى يربأ لقومه على شرف .
(٨) الدِّيماس : السجن .
(٩) وَطَرِى : حاجتى ، يقال : قضى منه وطره ، أى : نال منه بغيته .